٣ ـ مولود فرعون

لننتقل الآن إلى كاتب آخر يدعى مولود فرعون يقص علينا حياته فى جبال القبائل بأسلوب واقعى ، جذاب مؤثر ، وقصته فى الحقيقة هى قصة قومه الفقراء الذين يعيشون فى فقر ويموتون فى فقر ، فلا يثورون ولا يتذمرون كأن هذا مصير طبيعى محتوم لكل إنسان على وجه الأرض ، ولذا توج مولود فرعون غلاف روايته « ابن الفقير » بعبارة للكاتب الروسى تشيكوف تعكس روح القصة وترسم الإطار الذى تدور فيه حوادثها « نحن نعمل لخدمة سوانا ، حتى سن الشيخوخة والعجز ، وعندما يدنو أجلنا نموت دون دمدمة وتقول فى العالم الثانى : إننا ذقنا الآلام ، وبكينا وعشنا سنين طويلة من المرارة وأن الله سيرأف بنا » .

وألف مولود فرعون رواية « الأرض والدماء » وهى التى فازت بجائزة الأدب الشعبى فى فرنسا سنة ١٩٥٣ ، انتزع بها الجائزة من خمسين كاتباً فرنسيا منافساً إياهم فى ميدانهم وفى لغتهم ، وألف أيضاً كتاباً عنوانه « أيام القبائل » وهو

مجموعة أبحاث عالج بها موضوعات اجتماعية فى أوساط القبائل فى الجزائر.

ولد مولود فرعون فى قرية تابعة لمديرية « فورناسيونال » فى منطقة القبائل العليا .

ويظهر أن مولود هذا كان فى بدء حياته راعياً أو على استعداد ليكونه ، ولكن الحظ حالفه فاستطاع أن يتعلم ويدرس ويفوز بالشهادة فيعين معلماً ابتدائياً فى قريته مما جعله يرتفع قليــلا عن مستوى بيئته وأن ينعم وذويه بشىء من اليسر المادى بعد الحرمان والجوع . فقصته إذن قصة هذا النضال الموفق ، بل هذا الوصول إلى هدف تنتهى عنده مطامع صاحبه ، بل قصة شخصية رجل فى أدوار تكونها ونمائها وارتقائها فى بيئة فقيرة منعزلة وشغل صاحبها بتحصيل القوت الضرورى عما عداه من أمور الدنيا .

وقد نالت رواية « ابن الفقير » شهرة بعيدة فى الجزائر أولا ثم تعدتها إلى أفريقيا الشمالية كلها حتى غدت من الكتب الأدبية الكلاسيكية ، يدرسها الطلاب على أنها من روائع الأدب المغربى المكتوب بلغة فرنسية .

تجرى حوادث الرواية فى قرية نائية من قرى القبائل الجبلية ، وهى قرية أشبه بغيرها من قرى الريف فى الشرق العربى فى فقرها وخصاصتها وبدائيتها فالبيوت حقيرة : والأزقة ضيقة ، معوجة ، يملأها الغبار صيفاً ، والوحل شتاء بنيت البيوت من اللبن وسقفت بالخشب والقصب والشوك ، وطليت الجدران بالكلس ، وإذا نظر القادم إلى القرية من بعيد تراءت له بيوتها المتراكبة كفقرات « عمود فقرى لحيوان هائل منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ » وما سر هذا التلاحق والتراكب إلا شعور الفلاح من قديم الأزمنة بالوحشة والانعزال وما يصحبهما من خوف تجاه للطبيعة الجامحة ، والمناخ القاسى ، وحاجات الحياة ، على أن فى القرية بيوتاً جديدة تجلب النظر ، بناها أصحابها من المال الذى جمعوه فى فرنسا ؛ فكانت هذه البيوت « بواجهاتها الصارخة وقرميدها الأحمر وسط البلى العام تنبئ عن ترف فى غير محله » .

إن حياة القرية كحياة كل فرد من أفرادها عالم مستقل صاخب فى أفراحه وأحزانه ومطامعه وتناقضاته وآفاته النفسانية ، إلا أنه عالم محدود ، غريزى ؛ بدائى يدور كله فى فلك الرغيف وبلغة العيش ، ويظهر أنه كلما كانت البيئة فقيرة ، كان

النزاع بين الأفراد أشد ، والصراع من أجل البقاء أقوى ، ومع أن الطابع العام الطبيعي للقرية هو المساواة وانعدام الفوارق ، فقد كان هناك فقراء وأغنياء ، فقراء لا يملكون إلا جهد الأيدي ومتانة السواعد ، وأغنياء لم تتجاوز ثروة أحدهم بضع شجرات تين وزيتون وهكتاراً من الأرض الصالحة للزراعة وأحياناً ينبوع ماء في الحقل ، ولكن هذا كاف لكي يثير عند الفقراء الإعجاب المقرون بالحسد ، على أننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الفلاحة تجرى في أرض جبلية كلها انحدرات حتى إذا جمعت المساحة وأحصيت الأطراف والشعاب لم تتجاوز المئة متر مربع ، يحرثها فدان لا يكبر الثور فيه الخروف الكبير ومع ذلك فإن التقاليد تقضى بأن يكون الأعور بين العميان ملكاً فليتكلم هذا الملاك الغنى في الاجتماعات بصوت عال وليكن السيد المطلق في بيته ، وليحتفظ بالسلطان والإعجاب اللذين هما المظهر المرئي للثروة ، إذ لولا هذا المظهر المعنوى لما امتاز ممن لا يملك شيئاً ، إذ أنه يعمل أكثر من الفقير ، يعمل مع عماله ويأكل معهم ويلبس مثلهم ويشاطرهم أتعابهم وإن كان لا يشاطرهم همومهم وأحزانهم .

في هذه البيئة الفقيرة حيث جرد أهل البلاد من أراضيهم الخصبة وحشروا في بقاع ضيقة يجهد أهلها لاستنباط الخيرات

من الأرض الشحيحة ، يصبح الفقر مصدراً للآفات الاجتماعية ويصبح معه القوت اليومى قضية أساسية يتركز عليها سلوك الأفراد ونمط حياتهم وتفكيرهم وتفاعلهم مع محيطهم ، وهكذا نجد أن أهل القرية التى ولد فيها المؤلف يتآخون ويتعاونون ويتنابذون ويتحاسدون ويجوعون ويصبرون فى إطار من الاستسلام لمشيئة الأقدار والرضى بالقليل والرزق المقسوم . والمهم فى الأمر أن مولود فرعون أو فورواو كما سمى نفسه شهد النور فى قريته الجبلية وشهدت هذه مراحل حياته منذ كان طفلا يحبو إلى أن أصبح معلماً ، وتطل علينا من خلال روايته شخصيات تمثل كل واحدة منها دورها الحقيقى دون تكلف أو تصعيد بل فى واقعية قريبة جداً من الحياة ، وقد أبدى مولود فرعون فى روايته هذه موهبة نادرة فى فهم النفوس وإحساساً نفاذاً قادراً على الاندماج والتقمص فى أبطاله وتحريكهم من الداخل والخارج وبث معانى الحياة فيهم . ومن هؤلاء الأشخاص من له دور أساسى تتجمع فيه العناصر الهامة ومنهم من هو ثانوى يظهر بين وقت وآخر ليكمل صورة أو يمثل دوراً أو يدعم فكرة أو يبدى وجهة نظر ، وحياة الكاتب كحياة كل قروى خالية من الضجيج فى العالم الخارجى إلا أنها غنية من الناحية

النفسية ، كما أن طفولته وإن لم تكن سعيدة فهى ليست تعيسة على وجه الإجمال ، فقد كان هناك فى أسرته من يهيئ له السعادة وأجواء الحنان ويدفع عنه عوادى الزمان ، منهم أبوه رمضان وأمه فطمة وعمتاه خالتى ونانا ، أما أبوه فقد عمل وضحى من أجل أسرته ولم يدخر وسعاً على فقره من إدخاله المدرسة والقيام بنفقاته وهو كما وصفه « أسمر اللون ، قوى الجسم فيه صفات الفلاح القبيلى كمتانة البنيان وصلابة الأعصاب ، له جبهة مربعة وأنف أفطس صغير وشفتان رقيقتان ، ووجنتان عريضتان فيه عادة إغماض عينه اليسرى عندما ينظر إلى الناس ، وقد حاولت أمه أن تخلصه فى صغره من هذه العادة القبيحة فلم تفلح كما حاولت أن يقلع عن عادة المشى بتثاقل كالدب لأن هذه المشية تعطيه فى كل خطوة يخطوها شكل من يستعد لرفع حمل ثقيل أو ملاقاة خصم معتد » . أما أمه فطمة فهى قصيرة القامة ، صفراء الوجه ، هزيلة ذات وجه طويل ووجنتين ناتئتين ، نظراتها وديعة ملأى بالكآبة المحببة ، ولا تجيد من أنواع سوى طهى « الكوسكوس » .

وهناك عمتاه اللتان تحبانه وتعطفان عليه كثيراً ، تقطنان فى بيت صغير أشبه « بعش مدور مظلم » ولكن الداخل إليه

يشعر بحرارة الألفة الهادئة حتى لكأن الجدران تمسك فى كل حركة من حركاتك ، فيخيل إليك أنها تداعبك ، وأن الأثاث يبتسم لك فى الظل . »

وقد لعبت عمتاه دوراً كبيراً فى حياته ، حتى استغرقتا جزءاً كبيراً من روايته وسط الحوادث الكثيرة التى قصها علينا ، فهما مدرسته الأولى التى تكونت فيها نظرته للدنيا وركبت فيها أجزاء شخصيته ، وكانت عمته الكبرى تحكى له الحكايات فى ليالى الصيف والشتاء ، ومن تلك الحكايات تعرف على حد قوله « على أخلاق الناس وأحوال الصالح والطالح والقوى والضعيف والماكر والساذج ، وكانت عمتى تستطيع إبكائى وإضحاكى . . لأنها كانت تتأثر بالقصة التى ترويها ، وإذا سمعتها خيل إليك أنها تؤمن بكل ما تقول ، فهى تضحك وتبكى كابن أخيها ، وإذا كانت عقدة الحكاية محزنة جداً نمنا معاً تحت تأثير القلق يضم كل واحد منا الآخر من شدة الفزع وإلى أن يقول : « . . . وكانت الحكاية تسيل من فم عمتى فأشربها بنهم » .

وقد أجاد مولود فرعون تصوير الجو الأسرى ببراعة فائقة فأطلعنا بأسلوب سهل طبيعى على لوحات من حياة القوم ،

وإذا كانت الحياة طريقاً طويلة مزروعة بالحوادث والآفات والمصائب فإن من هذه الحوادث ما يعفّى عليه النسيان والعدم، ومنها ما يظل حيا يعيش معنا ويكيف حياتنا الشعورية واللاشعورية ، وإذا كان ما قاله أحد الكتاب من أن « أفضل أجزاء العبقرية هو ما كونته الذكريات » فإن رواية مواود فرعون غنية بالذكريات الهادئة والعنيفة على السواء ، وكان من حسن حظ الكاتب أن هذه الذكريات محزنة وكئيبة لا لأن ذكر الفواجع والكوارث أوقع فى النفس البشرية بل لأن الفواجع والأحزان تأتلف وهذه البيئة الفقيرة وهذا الشعب المعذب ، فهى أدعى للبراعة الوصفية والكمال الفنى ، فقد مات أبوه بعد رجوعه من فرنسا من الإعياء والتعب ومن جراء جرح أصيب به فى إحدى المعامل ترك فيه أثراً عميقاً يمتد من الصدر حتى أسفل السرة » وماتت عمته الأولى على إثر ولادة ، وماتت الثانية بعد أن أصيبت بالجنون حزناً على أختها وهنا يتجلى فن مولود فرعون الوصفى قال يصف نهاية عمته الأولى : « لقد ماتت بين أذرع أخواتها بعد ليلة قضتها فى عذاب ، تاركة جنيناً بارداً مسكيناً صحبها إلى القبر ، لقد ظلت جثة الصغير معلقة بأمه منذ أول الليل ، وأخذت عزيمة « نانا » تخور شيئاً فشيئاً فيغمى عليها

فى كل لحظة حتى لم تعد سوى حطام بشرى ؛ وكان يسمع لأحشائها قضقضة فيسيل موج الدم فيسمع له صوت كقرقرة الماء يندفع من فم الجرة ، وكان بالإمكان نزع هذه الثمرة الخبيثة العالقة بأحشائها ؛ ولكن الله لم يرأف بعمتى فإن عمل الحياة يجب أن ينتهى بالموت ، فدام احتضارها حتى الصباح ولفظت أنفاسها بهدوء مع آخر نجمة فى السماء » .

ويسترسل مولود فرعون فى وصف المشهد ببراعة لا يجيدها إلا من عرف المصائب والآلام فألفهما : « ولا أزال أرى عمتى « نانا » وهى مسجاة على بساط عرسها ، مغطاة بقماش أبيض ، ووضع لها منديل أصفر يسند ذقنها ويحيط بوجهها ، وكانت عيناها مغمضتين وأنفها مكزوزاً ووجهها شاحباً كلون المنديل ، ويخيل للناظر أنها نائمة ، ولكن للنوم أشكالا ، فهناك نوم التعب ، ونوم العافية ، ونوم المريض المضنى المعنى ، والموت شىء آخر . . . والآن عندما أراها وأفكر بها جيداً ، وبعد أن شاهدت وجوهاً أخرى فإن وجه « نانا » خال من المعانى ، فليس فيه أثر للابتسام أو الثورة ، أو الألم أو الراحة ، لا شىء من كل هذا ، ذلك هو الموت ، فإذا مات عزيزٌ علينا فلن يربطه بنا شىء بعد ذلك ، وإن ثوباً تعلقه فى مكانه الاعتيادى أجدى

فى بعث الذكرى من جثة الفقيد ، ترى ماذا يقول وجه « نانا » الجميل الذى أحببناه جميعاً ، والذى يضحك لنا جميعاً ، لقد أخذ الموت كل شىء وترك لنا قناعاً لا يأبه بنا ينصبه كحاجز منيع تصطدم عليه آلامنا فلا يسمع لها صدى » .

هذا وفى الرواية مقاطع ولوحات عديدة توفر للقارئ متعة حسية يؤدى العامل العاطفى دوره فى خلق الانطباعات القوية المؤثرة فى النفس فمن ذلك قوله فى وصف نظرات المجنونة : « رفعت إلى عينين لم أعرفهما ، عينين زائغتين تأبيان أن تتعرفا علىّ ، وكانتا تلمعان بين آونة وأخرى فتشعان بضياء غريب ثم تنطفئان فجأة بعد أن يجللهما حجاب كثيف لتغيبا فى عالم مبهم ، ياالعينى المجنون إنى لا أكاد أراهما حتى تجتاحنى هزة إذ هما وحدهما يعكسان آلام الروح وتفتشان بحيرة عما فقده القلب والدماغ » .

أو متعة عقلية وذلك بالدلالة على بعض القضايا والظواهر الاجتماعية كقوله فى وصف حفلة صلح بين شجار وقع بين حيين بدافع العصبيات والأحقاد القديمة : « انتهى الصلح وأكل الكوسكوس وقرأت الفواتح الأولى عن روح الأحياء والثانية عن روح الأموات والثالثة عن روح الأولياء والرابعة للمزروعات

والخامسة لمجد الأسرة ؛ وكانت الأخيرة أحبها لقلب جملتى وهى التى كانت تتلوها بحماسة » .

أو متعة فنية بتسجيل اللمحات النفسية الخاطفة كقوله فى وصف مشاجرة نسائية : « فى زقاق ضيق جرت معركة نسائية صاخبة ، مضحكة ؛ وكن فى تجمعهن يشكلن عنقوداً متحركاً متنوع الألوان ، حيث يمتزج اللون الأسود بلون القوط الأحمر ، وبينما كان الرجال يفرقون جموعهن كان بعضهن ينتهزن الفرصة لتوجيه ضربة غادرة أخيرة إلى عدوتها » .

أو قوله فى وصف نسوة كن ينظرن إليه فيشعر بالحياء والخجل : « كانت لهن عيون كبيرة سوداء ، فكأن نظراتهن عندما تهبط على تجردنى من ثيابى » .

وهو فى كل ما كتبه يدل على أصالة قوية هى أولى سمات الأدب الرفيع .

تتجلى موهبة مولود فرعون فى وصف الريف ، فهو ابن الريف ، فيه عاش وفيه تكوّنت شخصيته ، ولعل نشأته فى وسط الفلاحين قد أوجدت عنده هذا الإحساس بحياة الفلاحين ، ومكنه من دراسة أحوال أهل هذه القرى الجبلية النائية ، وتصوير عاداتهم وتقاليدهم وتصوراتهم وأنماط حياتهم المادية

والاجتماعية . أقول دراسة أحوال لأن رواية « الأرض والدماء » التى ألفها مولود فرعون قد تضمنت إلى جانب الناحية الروائية دراسة اجتماعية قيمة تكشف لنا أسرار هؤلاء القوم المنعزلين عن العالم الخارجين ، المنطوين على أنفسهم ، الرازحين تحت وطأة العادات القبلية والعصبيات العرقية ، ولو أردنا مقارنة هاتين الناحيتين الروائية والاجتماعية لرجحت الثانية على الأولى فى الطرافة والمتعة .

وخلاصة الرواية أن الشاب الجزائرى عامر بن قاسى هجر قريته شأن أمثاله من أبناء قريته إلى فرنسا ليعمل فى مصانعها ومناجمها بعد أن باع أرضه ، وبعد غياب دام خمسة عشر عاماً عاد إلى قريته ليعمل فى الحقل ، فوجد أن أباه قد مات ، وأن أمه كمومة تعانى الفقر والعوز ، وكان أثناء وجوده فى فرنسا قد تعرف على فتاة فرنسية هى ابنة عمه « حمدوش » من خليلته الفرنسية « إيفون » فتزوجها وعادا معاً إلى قرية « أنجل نزمان » وقد أثارت عودته إلى القرية التطفل والدهشة والاستنكار عند الكبار والصغار . وبعد مدة من الزمن استطاعت الزوجة أن تتكيف مع المحيط الجديد وأن تعيش فترة ذاقت فيها طعم الهدوء والسعادة ، ولكن عامراً أحب ابنة عمه « شهبا » وبعد

حوادث كثيرة لعبت فيها الغيرة وتقاليد العرض فى هذا المحيط المقفل قتل عامر وابن عمه سليمان زوج شهبا فى انفجار لغم أرضى ، وعادت القرية إلى حياتها السابقة الرتيبة .

* * *

عاد عامر إلى قريته بعد أن عاش فى فرنسا متنقلا بين مدنها الصناعية ، فاستقبلته قريته الصغيرة بخصاصتها وبؤسها تلك القرية التى هى « مجموعة بيوت بنيت من أحجار وطين وخشب ، وهى فى بدائيتها تكاد لا ترمز إلى تدخل يد الإنسان الساذجة فى بنائها ، فكأنها بنيت اوحدها كما عرضت لساكنيها ، حتى إنها لتعتبر أعجوبة فى هذه الأرض العاقة التى اختلطت بها ، والتى يعيش عليها كل فرد من أفرادها حتى ينتهى به المطاف إلى نوم أبدى تحت بلاطة من الحجر الأسود . . . إننا لا نجد فى القرية أى أثر للإنسان ، متيناً أو ضخماً ، معقداً أو جميلا يستطيع أن يتحدى به العصور ، أو يدل به على ماض مجيد ، بل نشعر هنا بجهد الإنسان المنعزل ، القليل الغناء ، الجلف ، المجرد عن الوسائل ، الذى يكدح ليعيش . والمفهوم أن هذا الجهد المتواصل لا يذهب أبعد من عمر إنسان ، ولذا كان التراث فى هذه القرى ضئيلا ، وكان على كل جيل

أن يبدأ البناء من جديد ، وألا يشتغل إلا ليومه ونفسه » .

لقد تغير كل شيء فى القرية حتى معالم الأشياء والمخلوقات لم تعد لها تلك البهجة فإن « الطريق التى تلتهمها الأشواك البرية قد أصبحت حقيرة ، والسنديانة الكبيرة التى تصور أنها ستكون عملاقة ، والتى كان يفكر بها كلما شاهد دوحة فى فرنسا لم تعد تستحق أى احترام ، فهى هنا تنتظره منذ خمسة عشر عاماً بأوراقها الغبراء المتناثرة الموزعة ، وشكلها العجوزى النحيل الذى ليس فيه شيء من معانى العظمة ، لقد شاخت شجيرات التين ولكنها لم تكبر ، وهنـــا وهناك جذول يابسة ، وأغصان متكسرة ، وشجرة فتية شوهتها الحيوانات . . . إنه حقل كئيب !

أما السكان فهم هؤلاء الفلاحون التافهون الذين يعيشون كالنمل يشد بعضهم بعضاً ، يكتفون بالقليل ، راضين بنصيبهم كأنهم لا يشكون لحظة فى أنه يمكن لهذا النصيب أن يكون أكبر وأحسن » !

تلك هى القرية التى عاد إليها عامر مصحوباً بزوجه الفرنسية « التى تبدو عليها علائم الإرادة القوية كأنها مسلحة لمجابهة الحيـــاة » وكان لابد له من أن يشعر بشيء من

الخجل لما تقع عليه عيونهما من مناظر التأخر والبدائية : فهو يشعر بما يشعر به كل من ذاق طعم الحياة الغربية وأعجب بنظامها ونمط عيشها ، فكأن السنين الطوال التى قضاها بعيداً عن مسقط رأسه وأهله قد أوجدت هوة بينه وبين محيطه الأصلى ، وقد تستمر هذه العقدة طويلا إلى أن يطبق عليه المحيط من جديد فتتلاشى المؤثرات والذكريات بفعل الزمن ولنسيان والعادات الجديدة المستردة فيحتل مكانه كفرد من أفراد القبيلة « ليس لغيابه الطويل من معنى سوى كونه فاصلة كبرى يستحيل عليهم تغيير معنى الجملة العام » .

كان عامر يشعر عند دخوله القرية بالخجل لمنظر « حمأة الطين الزرقاء التى تنساب من أبواب البيوت ، فى سواق رفيعة ، لقد خجل من كتل الغائط التى تنتن فى الزوايا ، ومن هذه الجدران الشبه منهارة والمرقعة بحصر القصب ، بل من هذه الأكواخ الحقيرة القذرة التى سودها الدخان ، إن هذه المناظر كانت ناقمة على عامر لأنه فضح أمرها أمام هذه الأجنبية » .

إن عامراً لم يخف عن زوجه هذه الحقائق ، فقد حدثها كثيراً عن الحياة فى القرية كيلا ينتابها اليأس وتصدمها الخيبة ، على أنه لابد للعائد من تعويض يخفف من الفوارق بين الحياتين

الأوربية والريفية البدائية ، وإلا لأصبحت الحياة شبه مستحيلة ، فإن عامراً لم يلبث أن عقد مفاضلة بين ما كان فيه وبين ما هو قادم عليه ، فما لبث أن علم أن البلاد التى أدهشته بعظمتها كان فيها « صغيراً ضئيلا » . . فهو هنا يشعر بأهميته وقدرته على العمل واحتلال مكانه فى عالم القرية ، ثم إن الالتزامات التى تحلل منها عند مغادرته قريته قد برزت أمامه من جديد ، فقد يحب ويبغض ، ويقلد ويحسد ، ويؤمن ويعمل حسب توجيهات دقيقة صادرة عن أسرته وأقربائه ، وهو شاعر بهذه التوجيهات عن طريق الحدس كما لو انتقلت إليه بالإرث لشدة رسوخها فى أعماق نفسه .

وفى القرية أشخاص فرحوا بلقائه وأنسوا به ، إلا أن هناك شخصاً خفق قلبه لهذا اللقاء أكثر من أى قلب ذلك هو قلب أمه كمومة التى عاشت بعد موت زوجها على صدقات أهل البر والإحسان من أهلها وأقربائها ، فلما عاد جدد أملها بالحياة وأعاد إليها اعتبارها المفقود وكرامتها المهدورة ، وقصة كمومة مليئة بالجوانب الإنسانية التى أبدع مولود فرعون فى إظهارها وتحليلها ، ولعل شخصيتها من أقوى الشخصيات المؤثرة التى عرضها فى كتابه ومن أجلها إلى قلبه ، فهى « امرأة

عجوز ، فقيرة ، مسكينة ، مثقلة بالتجارب والسنين ، وهي تجهل أين وصلت من حياتها ، تزوجت فى وقت مبكر من قاسى أب عامر فعاشت ضمن أسرة كثيرة الأفراد ، وكانت الحياة صعبة فتعلمت الصبر والكدح وذاقت الظلم والأذى ، فكانت الضحية فى أغلب الأحيان ، ولكنها إذا سنحت الفرص ترد على الأذى بمثله ، رزقت أولاداً ذكوراً وإناثاً ، وعرفت آلام الوضع دون عناية ، وعرفت أيضاً ليالى السهر والمرض وسنى الحرمان والجداد ، ثم كتب لها أن تشهد تمزق الأسرة فى القرية ، وتبعثرها فى المقبرة ، فلاقى أولادها أهلهم فى القبور ، وفى يوم من الأيام وجدت كمومة نفسها وحيدة مع زوجها وولدها عامر . . . فوضحت عندئذ المسألة ، إذ ليس أسهل عليهما من أن يربيا ولدهما عامر ويجعلا منه رجلا بأسرع ما يمكن ليعيل بعد ذلك أبويه العجوزين ، فأحيط عامر بالعناية والدلال ، وعومل ليس كولد وحيد بل كينبوع ثر للطمأنينة المقبلة والسعادة الشيخوخية الأنانية » .

على أنه تبين فى النهاية لأبويه أن قوانين الكون تسير على خلاف ما يريدان ويشتهيان ، وأن التضحية والفداء عند الأبوين يقابلها المنع والأنانية عند الأولاد ولذا غدا هذا « القصر

المنيف الذى كان منه عامر فى حجر الزاوية يضيئه كالشعاع المنير وهماً وسراباً خداعاً ، وأنه هذه الطمأنينة التى يجب أن تسيّج أيامهما الأخيرة ، والولد البار الذى سيطبق لهما أجفانهما بعد مفارقة الروح الجسد أملا ضائعاً من الأولى ألا يفكرا فيه ، لأن عامراً بعد سفره إلى فرنسا قد شغل بنفسه عن أمه وأبيه » .

لم تكن كمومة براضية عن زواج ابنها ، وهى مؤمنة بأن هذه الأجنبية لا يمكن أن تكون زوجاً لابنها ، إن ما يناسبه هى فتاة من القرية نفسها ، وفى القرية كثيرات من الفتيات الجميلات اللواتى يرغبن به وهو الشاب الجميل الذى عاد ظافراً من بلاد الغربة يحمل ثروة لا بأس بها ، وكانت ظنون كمومة وتشاؤمها يذهبان بعيداً فى تحليل مساوئ الزواج من الأجنبيات ، وخطر هذا الزواج على حياة أولادهن إذ لا يبعد أن تصرع الأجنبية زوجها فى ساعة غضب غير آبهة بالقانون التى يساندها فى عملها ، وقد شارك أهل القرية كمومة فى اعتقادها فهم يشيعون بأن عامراً أصبح عبداً لزوجه ، وهمس آخرون بأنه اتخذ امرأة سيداً له ، وأشار غيرهم بشىء من الشماتة إلى أن الأجنبية عبء ثقيل على مالكها !

لقد اصطدم عامر بعقبتين : سكان القرية من جهة ،

وعادات القرية وتقاليدها ، فهو إن استطاع أن يذلل مصاعب الأولى ، فهو أضعف من أن يتغلب على الثانية . فإن نساء القرية لا « يردن الأجنبيات » فهن قد جئن ليسلبن زوجاً لم يجدن أحسن منه فى بلادهن ، فعلى الأجنبية إذن أن تتحمل متاعب هذه المغامرة ، وعليها أن تتحمل أيضاً الانتقادات الموجهة إلى سلوكها وطريقة لبسها وشكلها ولغتها ، وعليها إذا أرادت العيش بسلام بين ظهرانيهن التصامم عن الهزء والسخرية ، وشراء صداقات بعضهن بالهـــدايا ، وتملق الآخرات والظهور بمظهر التواضع والإيناس إلى أن تندمج تدريجيا فى الرهط ، وهى طبعاً لن تدخله إلا من الباب الصغير .

وإذا رحنا نفتش عن صفات مشتركة بين هذه الأجنبية وبين نساء القرية لوجدنا أن مارى لم تكن أجنبية بالمعنى العادى لهذه الكلمة بل هى من عالم آخر يختلف تماماً عن عالمهن « إذ لم يكن بينها وبينهن من صفة مشتركة سوى الجنس » وكن يعرفن مقدار اعتزازها بفرنسيتها وعدم جدوى المقارنة قائلات : « لتعتبر نفسها أعلى منا قدراً ، وهذا شأنها وحدها ، وان نذهب إليها لنقول لها رأينا فيها » .

على أن الذى جعل هذه الأجنبية ترضى بالحياة الخشنة

التى هى أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة هى أن حالها فى فرنسا لم يكن بأحسن من حالها فى القرية ، فقد كانت تعيش شأن الكثيرات من أمثالها العاملات اللواتى يدأبن ليلا نهاراً لتحصل الكفاف وذلك فى محيط جائر ، قاس ، استغلالى فيه أخطار الغواية ، ومآسى التغرير ، فقد تعذبت كثيراً قبل أن تلقى عامراً ، وتعاورها عدة رجال ذاقت منهم الهجر وألوان الغدر والخسة والخيانة ، فكان لابد من الرحيل خلاصاً من هذه الحياة المرهقة ، إن كوخ الأم كمومة لم يكن أفضل من الغرفة المفروشة رقم ٤ فى شارع باربيس فى باريز ، وإن الذى تغير بالنسبة لهما هو الوسط ، إذ كانا يعيشان فى وسط إنسانى مادى بل فى منزلة خادمة أو جارية من الرقيق الأبيض ، أما الآن فهى فى عالم صغير محدود يرفعها إلى المقام الأول ، وهكذا ودعت بمجيئها إلى قرية « نزمان » عهد الذل والانحطاط .

إن نظرتها قد تطورت ، فهى ترى نفسها جميلة بين أولئك الفلاحات ، جميلة أكثر من أية مرة ، فإن أثواب الخدم التى ترتديها تبدو بالنسبة لثياب القرويات فاخرة ، أثاثها البسيط جدير بالإعجاب !

لقد كانت هناك عوائق أولية تمنع اندماجها فى المحيط

الجديد تتجلى فى هذا النفور والحذر الذى يقابل بهما الأجنبى فى البيئات المقفلة ، فقد كانت تعتقد أنها وعامر يؤلفان « زوجين غريبين : متناقضين ، أضاع هو صفته القبلية وأضاعت هى صفتها الفرنسية » فكان لابد أن تكون الخطوة الأولى من جانبها ؛ فقد أرادت التكيف والمحيط بعمل إرادى فيه كثير من التضحية بكبريائها وكرامتها ، « فعاشت بقوة مع هؤلاء النسوة اللواتى كن يدفعنها إلى فهم لغتهن ، وإلى أن تجهد نفسها لإفهامهن ومجادلتهن بلغتهن ، فكان سلاحها فى البدء الإشارات والحركات الموفقة حيناً وغير الموفقة حينا آخر ، وينتهى كلاهما بانفجارات ضحكية » .

وقد ظنت أنها لن تستطيع تفكيك هذا التداخل فى الأصوات البحاء الحلقية منها والحادة وهذا اللفظ السريع الذى يتصف به اللسان القبيلى ، « فكانت ترفع حواجبها ، وتبسط عينيها محاولة أن تفهم شيئاً مما يقال فتعجز حتى عن إعادة ما سمعت » ، ثم إن هناك أصواتاً يستحيل لفظها لأن « لسانها كان يعجز عن ملاحظة الشباب الدقيقة جداً والأساسية غالباً ، فعلمت أن فى الدنيا أشياء خلاف الخمس وعشرين حرفاً فى الأبجدية الفرنسية » .

وهكذا كلما مر الزمن ازدادت أنساً بمحيطها الجديد . وتكشفت لها نواح كانت تجهلها فعلمت مثلا أن وراء تأخر المرأة العربية وانحطاطها المادى والاجتماعى صفات إنسانية ومزايا خلقية تنطوى على الصبر والتسامح وسعة الصدر التى تحكم بها على ضعف النفوس ، وعلى رأفة مستمدة من هذه القدرية العفوية واللامبالاة والتى ليست سوى « تجربة لحياة لا حلاوة فيها » . وكانت مارى كلما توغلت فى تجربتها أطلعت على خفايا الحياة الزوجية فى الريف الجزائرى ، فهو عالم من الفضائل الخلقية والنفسية التى نقلها الفتح العربى وخلدها الإسلام فالمرأة هناك « مهذبة ، فيها حشمة وحياء وخفر تستجيب لصنع المعروف . . . وهى تحت مظاهر الإهمال نظيفة لا تلمس الأشياء قبل أن تغسل يديها ، وتنتظر ميعاد الطهارة قبل أن تجيز لنفسها طهى الطعام . . وهى فى كل ذلك رضية ، متواضعة شديدة الغيرة على عرضها وشرفها ، بعيدة عن الشهوة الجنسية والضلال الخلقى لأن المهم عندها ليس الحب بل الحياة ، فهى القضية الأساسية ، وكل شىء موقوف عليها ، ولذا كان نصيب هؤلاء القوم من المرح ضئيلا » .

أما عامر فقد تطورت نظرته إلى الحياة ، فقد أكسبته

التجارب والأيام السوداء التى مر بها نضجاً واتساعاً فى الأفق العقلى فلم يعد للناس فى نظره تلك « الهالة المثالية التى تضفيها عليهم الطفولة ، شأن الورق اللماع الذى تغلف به الصور ، فهو يرى الخشونة والتجعدات والشقوق » أى أنه يرى الحياة فى صورها البشعة الخفية .

لقد عاد من فرنسا مستجيباً لنداء الأرض ، حاملا معه تجاربه التى هى فى الوقت ذاته تجارب العمال الجزائرين الذين يعيشون فى فرنسا منذ بدءوا فى الهجرة إليها قبيل الحرب العالمية الأولى ، فهو لن ينسى مثلا هؤلاء العمال الذين « يتكدسون فى غرف أو أكواخ صغيرة ضيقة فى نهاية الزقاق قريبة من خنادق المجارى الكبرى . . . هم أقل العمال أجوراً ، وأقلهم ثقافة ، وهم أحوج من غيرهم إلى التساند والاتحاد . يتقاتلون ويحسد بعضهم بعضاً ، ويشى بعضهم ببعض ، وجدوا فى فرنسا مسرحاً لإيقاظ عصبياتهم القبلية وعنجهيتهم والتفاخر بأنسابهم وقبائلهم. يتجمعون هنا وهناك فى شكل مستعمرات ، يقترون على أنفسهم ليشترى أحدهم فيما بعد قطعة أرض من جاره فى الجزائر ، أو قسماً من باحة ، يهلكون أنفسهم كالدواب ، بخلاء ، سيئو الطبع ، فيهم ذلة ومسكنة ، يعود العائدون منهم إلى

بلادهم وقد ملأهم الغرور والأنانية : أما الباقون ، فيعيشون فى سفه ، يبذرون أجورهم ، فهم فى بؤس مقيم ، يلومون القدر وأهم أحرى بأن يلوموا أنفسهم » .

إن هذا البؤس الذى تردى إليه المهاجر الجزائرى لا يمنعه من تلبية نداء أرضه الملح مهما بعدت الشقة وامتد المهجر وتنوعت البلدان ، فهو حب أصيل تمكن من نفسه ، ففى هذه الأرض دفن الآباء والأجداد ، وبعثت الذكريات وحنت القلوب ، إن حب الأرض وعدم التفريط بها يفسران إلى حد بعيد هذه الضراوة التى يدفع بها الجزائريون جحافل المستعمرين عن أرضهم ، فهى جزء من كيانهم وعلى ضوء هذا التعلق الصوفى بأرض الوطن تفسر النزعة القومية الجزائرية ، ومن الطبيعى ألا يغفل كتاب الجزائر هذه الناحية فنحن واجدوها تقريباً فى كل آثارهم ، وفى « الأرض والدماء » مقاطع رائعة تتجلى فيها هذه النزعة فى نفوس القوم قال الشيخ رمضان لابن أخيه عامر : « إن أرضنا متواضعة ، فهى تحب بنيها وتعوض عليهم من حيث لا يدرون ، كما أنها تتعرف على بنيها ، وعلى الذين خلقوا من أجلها وخلقت من أجلهم ، فهى لا تدفع الأيدى البيضاء والكسالى والضعفاء فحسب بل الأيدى المرتزقة التى تريد

استنفاد خيراتها دون أن يحبوها (وما عليك إلا أن تشاهد حالة حقول الأغنياء التى أوكل العمل فيها إلى العمال المأجورين إن أرضنا ترفض الأيدى التى تدعى تزيينها وتجميلها ، ولا شأن لها بالمخارف المجروفة ، والزهور النادرة والحواجز المستقيمة . . . إن جمالها يجب أن يكتشف ، ولذا يجب أن نحب الأرض . » .
إن الوطن هو هذه الأرض التى يعيش الأحياء عليها ويأكلون من خيراتها ، وينام الأموات تحت ثراها ، هو هذا التراث الذى ينقله الأجداد للأحفاد فينقله هؤلاء بدورهم إلى أولادهم ترقبهم عيون الأموات وتشهد ما يفعلون لأن « الأموات دوماً على أبوابنا ، يشهدون حركاتنا ، ويسمعون كلامنا ويعرفون أسرارنا » .

إن الأوضاع الاستعمارية جعلت من الجزائر بلداً فارغاً مجدباً متأخراً اقتصاديا يعيش أهله فى مستوى معاشى وغذائى منخفض لا يعادله فى انخفاضه أفقر بلاد العالم ، وهذا ما يجعل مشكلة الفقر والبؤس من أعقد المشاكل التى يواجهها الواقع الجزائرى ولا أعتقد أن شعباً على وجه الأرض عانى ما عاناه الشعب الجزائرى من ألوان الحرمان ، والمنع والتقنين ، حتى أصبح الفقر والجوع صفتين فى طباعه الأصيلة ، وقد انعكست

هذه الظاهرة على آثار كتاب الجزائر ، فلم يخلو منها كتاب أو رواية أو بحث . واستطاع مواود فرعون هو الآخر أن يجلو عن مظاهر الفقر فى القبائل الجبلية صوراً فيها مرارة وحزن وتهكم ، بل استطاع أن يفلسف الفقر والحرمان بالنسبة للعقلية الريفية الجزائرية ، وأن يجعل من أبطاله فرائس ضعيفة مستسلمة للجوع شأن كمومة التى عاشت « تقتر على نفسها ، واعتادت ألا تأكل حد الشبع ، إن الجوع رفيق قديم . . والطريقة سهلة ، يجب أن نقلل من وجباتنا الغذائية تدريجياً ، ثم إن هناك الصيام الذى يرضى الله ورسوله ويظهرنا بمظهر الأتقياء ، ويعرف الذين ألفوا الحرمان أنه من اليسير تحمل الجوع ، فهم يفقدون الشهية تدريجيا ثم تنخفض التغذية ، ولكنهم لا يتألمون أكثر من الذين ينعمون بالغذاء فهى قضية درجات . . وبعد فليس الفقر عيباً ولكنه حالة من الحالات يجب مجابهتها كغيرها ، فله قواعده التى يجب قبولها ، وقوانينه التى يجب الانصياع لها كيلا يكون الفقير فقيراً سيئاً ، لأن الفقير هو الذى يعرف قبل كل شىء كيف ينتظر ، إن الله يعطى دوماً لمن يجيد الانتظار ، ولذا يفضل الجيران الأغنياء ألا يحلوا مكانه فيكتفون عادة بالعزلة ليأكلوا خلف أبوابهم المقفلة . » .

وهناك مقاطع تحلل نفسيّتى الفقير والغنى فى هذه البيئة المحرومة ، بيئة الفقر الأصيل المألوف والغنىّ العارض الغادر ، إن جل ما يستطيعه الإنسان هو أن يعيش بتحفظ : ويسمى هذا عادة الحياء ، لأن فى السعادة جانباً من العار ، وليس هذا العار فى مشاهدة بعض مظاهر البؤس بل عندما تبدو على السعيد علائم احتقار الآخرين . . . ولذا يختفى الغنى حياء ليأكل جيداً ، ويختفى الفقير ليجوع على هواه ، ولكن الكثيرين لسوء الحظ يفقدون هذا الحياء ويصبحون مبغضين ، غير محتملين . »

إن الفقير الممقوت هو الذى يثقل على الآخرين ، لأن الناس يضيقون ذرعاً من سماع شكواه الدائمية وعرض بؤسه فى شىء من الرضى والإعجاب بالذات ، فينتهى به الأمر إلى ارتكاب أنواع النذالات . أما الغنى فيبدو بغيضاً عندما يحرم من نعمة التحفظ ، ونحن نقول : إن الغنى الوقح يجد دوماً عقابه ، ولا نقول ذلك عن سذاجة بل عن تجربة ؛ لأن لكل شىء فى الدنيا ثمناً ، ولذا ارتسمت فى أذهاننا تعريفات للفقير الجيد ، فهو الذى يعرف الانتظار ، ومن المسلم به أن الانتظار لأجل محدود ؛ لأن من يموت فى البؤس دون أى تعويض يجد فى الموت ذاته تعويضاً وعندها يقول

الناس : إن الموت قد أراح فلاناً ! فيكونون بذلك قد أدركوا الحكمة الأزلية !

إن وراء اللوحة الروائية فى « الأرض والدماء » دراسة اجتماعية واقعية لعادات القبائل البربرية وتقاليدها واعتقاداتها وأساطيرها التى نلقاها فى البلدان ذات الرواسب البدائية التى تعيش على هامش الحياة الحضرية . إن المظاهر العامة لهذا المجتمع المقفل تتكون من « مجموعة من الدوائر الضيقة التى تحبس الناس ضمن نطاق الأسر والقرابات ، وتجعل من القرية قفصاً يعج بالناس حيث يتلاصقون ويرصد بعضهم بعضاً ، فى فرنسا مثلا ، فى القرى الكبيرة والمدن الصغيرة والمراكز الصناعية فإن الأسر تأتى وتستقر ، ثم ترحل نهائياً ، ويمكن لأناس غرباء أن يتلاقوا ويعيشوا جنباً إلى جنب ، ثم يفترقون بعد حين ، فهناك نوع من الحرية فى الحرية ، أو شبه استقلال ، أو نوع من الأنانية التى تجعل من الحياة معركة حرة على الفرد أن يخوض غمارها وحده ، ضارباً كشحاً عن غيره إلا بالقدر الذى هو فى حاجة إلى مصالحتهم ، فقد يمدد أو يختصر علاقاته ، وينشىء لنفسه الضوابط ، فى حين أن الحالة فى القرية القبلية مغايرة تماماً ، فالقرية وحدة اجتماعية

وجغرافية معاً ؛ فإن أولاد العمومة يسكنون فى حى واحد ؛ والأسر مستقرة دوماً فى أحيائها ؛ وإذا صادف وهاجرت إحدى الأسر إلى مدينة من مدن الجزائر فمن النادر أن يسمح لأسرة غريبة أن تحل محلها فى القرية ؛ إن القرية جزء لا يتجزأ ، يعرف أفرادها بعضهم بعضاً منذ أجيال » .

وفى الرواية أشياء طريفة عن عادات القبائل واعتقاداتهم مما نجد مثله فى أرياف الشرق العربى ويكفى بأن تعلم بأن « العقم عند الرجال والنساء من علائم الغضب الإلهى ، وهو دليل على أن الذرية إلى انطفاء لأن أفرادها طغوا وتجبروا . وأن أكل «أحشاء القنفذة المشوية» مدة سبعة أيام مخلوطة بالعسل ، أو الفطائر المغمورة بحليب الكلبة . وأن حشيش « المجنون » الذى لا يعرفه إلا القليلون ، وأن بقايا حشفة ختان الصبى كلها مفيدة للحمل . وأنك إذا أردت إخماد فتنة بين فريقين فما عليك إلا أخذ حصاة والبصق عليها ووضعها على الأرض من الجهة المبللة ! » .

وغير ذلك من الأشياء القائمة على الغيبيات والتماس روح الأجداد وعبادة الأولياء والصالحين والإيمان بالتنجيم ورجم الغيب وجميع مظاهر الحياة اليومية مما يضفى على الرواية صفة

وثيقة اجتماعية قيمة تكشف عن أسرار هؤلاء القوم .

وقد درجت على عادة إيراد بعض الصور الأدبية والفنية التى وفق الكاتب فى إيرادها ودونك بعضها :

قال يصف رمضان وزوجه سمينة وهما جالسان أمام الموقدة : « كان الزوجان جالسين على ضوء جمرات حمراء يغطيها غشاء خفيف من الرماد ، وكان البيت مغموراً بالظلمة وشعر رمضان كأنه فى قبر حيث لا شىء حى إلا هذه الموقدة التى تنهار وتموت بدورها قليلا قليلا . كانا صامتين ، حتى إن رمضان نسى جسمه المتعب ، ثم أخذ يحدق فى لهبه صغيرة تتراقص بين جمرتين ، مترددة ، شفافة ، شفافة كحجاب خيال مليء بالأسرار والأهواء ، فهى تارة تتوضح وترتسم وتغلف بشره بقايا جمرة ، وتارة لا تتوصل جهودها الضائعة إلا فى أحداث لولب صغير من الدخان ، فيلاحظ رمضان تكون كمية من الرماد على الجمر .

إن الحياة هكذا ، فهناك لهيب ينبع ويرتفع ثم يرتفع ولكن الرماد ذا اللون الصوفى يغطى فى النهاية الجمر ، وفى الصباح تجمع ربة الدار حفنة من الغبار الأبيض وتملأ «كانونها» بالأعواد الصغيرة الجافة لنار جديدة ولهيب جديد يعقبه رماد جديد ! ! ».

وقال يصف ضوء المصباح فى المنجم : « ابتعد الضوء الصغير وهو يرتجف ، وتبعه عامر بنظره فصار كلما ابتعد تناقص نوره تدريجيا حتى صار ضوءاً غير حقيقى ، يشبه النجم أو دودة اليراع وانطفأ تماماً . » .

وقال فى رجل سمين : « كأنه كيس من اللحم المترهل ! » .